

تمهيد:

يطلق المؤرخون اصطلاح (العصور الوسطى) على الحقبة التاريخية الممتدة من القرن الرابع الميلادي الى القرن السادس عشر الميلادي، وحاول المؤرخون تحديد الأبعاد الزمنية والمكانية لبداية العصور الوسطى ونهايتها، فقال بعضهم: بدأت العصور الوسطى عندما سقطت روما والامبراطورية الرومانية بأيدي البرابرة الجرمانيين سنة ٤٧٦م، وقال بعضهم الآخر: بدأت العصور الوسطى عندما بُنيت القسطنطينية في سنة ٣٣٠م، وأصبحت هذه المدينة عاصمة للإمبراطورية الرومانية بدلاً من روما، أو عندما شُطرت الامبراطورية الرومانية في سنة ٣٩٥م الى امبراطوريتين: شرقية عاصمتها القسطنطينية، وغربية عاصمتها روما، بينما يرى مؤرخون آخرون في انتشار المسيحية والاعتراف بها في القرن الرابع ديانة رسمية للإمبراطورية البيزنطية بداية العصور الوسطى، على انّ بعض المؤرخون يعدّون فترة الغارات البربرية في القرنين الرابع والخامس وتشكل الممالك الجرمانية على أراضي الامبراطورية الرومانية بداية لتلك العصور .

نظريات في انحطاط الإمبراطورية الرومانية في الغرب وسقوطها

لماذا سقطت الامبراطورية الرومانية في الغرب ومتى؟ يختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً في هذا الصدد. فهم مختلفون في الأسباب وعللها. ومن الطريف حقاً تراهم يتساءلون عن تاريخ السقوط أيضاً. أهو في سنة ٤١٠م، أم سنة ٤٥٥م، أو سنة ٤٧٦م، أو لم لا يمكن اعتبار سنة ٨٠٠م خاتمة المطاف؟ لذا فهناك نظريات متعددة متنافرة عالجت الموضوع دينياً ودنيوياً، فأقطاب المسيحية والوثنية نسبوا سقوط روما من عليائها إلى ارادة السماء.

إنّ رائد الفريق الأول هو القديس أوغسطين الذي أكد بأن سقوط روما - بابل الثانية، عبارة عن مرحلة تمهيدية لانتصار مملكة الله الخالدة حيث مصير الإنسانية، وما التاريخ إلا مسيرة البشرية نحو دار الخلود. وقد ضمن القديس أوغسطين آراءه

في هذا الشأن في كتابه مدينة الله The City of God، الذي قصد به الدفاع عن الدين المسيحي ضد التهم التي نسبت لسقوط روما بيد الأريك Alaric زعيم الغوط الغربيين سنة ٤١٠م إلى تعاليم المسيحية ونقمة الآلهة الوثنية لترك الدولة عبادتها.

ومن أشد المؤرخين الوثنيين في القرن الخامس الذين وجهوا التهم إلى المسيحية وتحميلها مسؤولية سقوط روما هو المؤرخ زوزيموس في كتابه التاريخ الجديد، الذي أرّخ فيه الحوادث الرومانية إلى سنة ٤١٠م، وأشار من خلاله بصراحة إلى أنّ المسيحية من الأسباب الهامة في تردي الأحوال في الامبراطورية، وحمل الامبراطور قسطنطين الكبير المسؤولية الأولى، وان سقوط الامبراطورية في الغرب نتيجة لنقمة الآلهة الوثنية.

هذا وقد ذهب النظريات الدنيوية مذاهب شتى ومن الأوائل في هذا المضمار أميانوس مارسيلينوس من انطاكيا. دون التاريخ الروماني ابتداءً من حكم الامبراطور نرفا Nerva سنة ٩٦م إلى مقتل الامبراطور فالنر سنة ٣٧٨م، ومع كونه وثنياً فقد نسب الكوارث التي لحقت بالرومان إلى ضعف الوازع الخلقي.

ويشير الأستاذ السورث هنتكتون في مقالة له أن انحطاط الإمبراطورية الرومانية في الغرب يتعامد مع فترات الجفاف التي أصابت العالم. وقد سجلت إحصائياته خلال الفترة (٢٠٠-٤٠٠)م نقصاً متزايداً في نسبة هطول الأمطار، أدى إلى الجفاف والمجاعات، ومن ثمّ تحركات البرابرة وطغيانهم على الإمبراطورية في الغرب.

ويرى الأستاذ سيمخوفج Simkhovitch، رأي هنتكتون تقريباً، فإنهاك التربة في إيطاليا والولايات التابعة لها حولها إلى مراعي، ويقول لو سأل المرؤ فلاحاً آنذاك ما هو الربح بالنسبة له لكان جوابه المراعي وأن آخر شيء يفكر به الزراعة. ومع ذلك فإن المراعي نفسها اخذت بالتحول إلى أراضي جرداء في إيطاليا. كما أن إهمال السلطات لمشاريع الري أدى إلى تفاقم خطر المستنقعات التي أصبحت بؤراً للملاريا التي حصدت أرواحاً كثيرة من الفلاحين.

وللمؤرخ كيبون Gibbon نظرية هامة في هذا الموضوع، فقد أشار الى أن الانحلال أخذ يدب في الامبراطورية منذ أواخر القرن الثاني للميلاد، على أثر وفاة الامبراطور ماركوس أورليوس سنة ١٨٠م. ومما يسترعي الانتباه في نظريته أمران:-

الاول: تدفق السيول البربرية على الامبراطورية، إذ مارست تلك الأقوام أعمالها التخريبية عن طريقين ، الأول: بربرة المجتمع الروماني بمؤسساته ونظامه من الداخل. والثاني: ما سببته هجماتهم المتكررة من استنزاف للأموال والعناصر الرومانية. وان الثغرات التي أحدثوها في خطوط الدفاع الرومانية زعزعت الايمان بالإمبراطورية في الداخل وكسرت هيبتها في الخارج وجرأتهم على التماذي في الاعتداء والدخول عنوة الى الامبراطورية إن اقتضى الأمر ذلك. أما الأمر الثاني حسب رأي كيبون فهو انتشار المسيحية.

أمّا كيفية ذلك، فيراه في أن المسيحية معول هدم لكافة القيم الاقتصادية والعسكرية والسياسية في البداية، إذ أنّ مواقف المسيحية سلبية إزاء السلطات الوثنية، ولم تعترف بقدسية الإمبراطور الوثني الذي يمثل الوحدة أو الرابطة الدينية لشعوب الامبراطورية على اختلافها. هذا وأن تعاليمها في أول الأمر مثبطة للهمم الاقتصادية بدعوتها للكفاف أو الرزق اليومي في أبسط أشكاله. وأن دعوتها ضد العنف والحروب أثرت أيضاً في الناحية العسكرية، ناهيك عن التطاحن بين الفرق المسيحية من جهة وبين بعضها والسلطات الحكومية إثر الاعتراف بها في عهد قسطنطين وشركاءه، في سنتي ٣١٢ و ٣١٣، والتي أدت إلى فوضى أيديولوجية عامة فضلاً عن اشغال الحكومة الرومانية، وإنّ الفرق المضطهدة أصبحت العدو الخفي للإمبراطورية. فإن كان اعتناق قسطنطين للمسيحية قد عجل في انحطاط الامبراطورية فان دينه المنتصر من ناحية أخرى قد خفف من حدّة السقوط إذ عمل على تهذيب وحشية الفاتحين.

أمّا الردود على نظرية كيبون في تحميله المسيحية مسؤولية الانهيار فتتلخص بما يلي: إنّ الكنيسة ذات رسالة قصد بها الخير لتلك المجتمعات آنذاك. فدعت إلى الايثار والمساواة والسلام. وهي الأداة التثقيفية للأقوام الجرمانية وغيرها، إذ كسرت كثيراً من حدّتهم وعملت على ترويضهم. وللكنيسة أيضاً مواقف عدّة كانت فيها عوناً للسلطات في حفظ النظام والتوسط بينها وبين الجموع الغازية. ومثلت أيضاً وسطاً هاماً في نقل الحضارة الرومانية من جيل إلى آخر. ثم أصبحت فيما بعد من أكبر دعاة الامبراطورية المسيحية.

ومهما يكن من أمر فإن السلطة الفعلية في الغرب قد انتقلت إلى عناصر جرمانية منذ النصف الثاني من القرن الخامس على الأخص. ولم يشهد الغرب إمبراطوراً يحكم في إيطاليا منذ انقلاب أود واکر^(١). ولعل ذلك من المبررات التي تجعل من سنة ٤٧٦م نهاية للإمبراطورية الرومانية في الغرب وبداية للعصر الوسيط بالرغم من أن السنوات لا تحدد التطورات التاريخية من حيث البداية أو النهاية. ومع ذلك فإن انقلاب أود واکر جاء منسجماً مع حصيلة التطورات العامة في المجتمع الغربي.

(١) كان أود واکر محارباً من أصل ألماني، قاد الثورة التي أسفرت عن طرد رومولوس أوغسطس آخر أباطرة الرومان الغربيين سنة ٤٧٦ م، وأصبح بعد ذلك حاكماً على بقية أجزاء الإمبراطورية، ويبدو أنه أحسن الحكم، وفي هذه الأثناء قلق زينون (الإمبراطور الروماني الشرقي) من انتصارات أود واکر، فشجع ثيودورك العظيم زعيم القوط الشرقيين على اجتياح إيطاليا سنة ٤٨٩م، وحوصر أود واکر في رافينا حوالي ثلاث سنوات، ثم اضطر إلى الاستسلام بسبب أزمة الطعام، وقد صرع بعد ذلك.